الخطاب القرآني في آيات النعمة دراسة في الدلالة والأسلوب

أ.م .د. سعيد سلمان جبر/ كلية الآداب/ جامعة واسط
أ. د. أسيل متعب الجنابي/ كلية الآداب / جامعة واسط

المقدمة :-

الحمد الله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادون ،والصّلاة والسلام على خير النبيين _ وسيد الأولين والآخرين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد .

فإنّ للقران خصوصية في استعماله للألفاظ والتراكيب ،وبيان دلالاتها . هذا ما اختص به إذْ إنّه لا يجارى في هذا المجال، ولا يبارى على المنوال . ولما كانت غاية الدراسات اللغوية في العربية هي بيان أسرار النظم القرآني ، وفهم أساليب بنائه المعجزة ظل موردا متجددا، ومعينا لا ينضب لأهل المعرفة ؛ لينهلوا من منابع كنوزه ، فبحثوا في كثير من الفاظه، وتراكيبه كل حسب اختصاصه. وقد أثرنا أنْ ندرس الآيات القرآنية التي تضمنت لفظة جاءت على وفق أساليب مختلفة ،ودلالات متعددة وهي (نعمة) للكشف عن أسرار البيان القرآني في استعماله لها، وبيان دلالاتها، وأساليبها ؛ لذا قسّمنا البحث وفقا للدلالات الآتية:

١- الدلالة على الامتنان .
٢- الدلالة على النصر والنجاة .
٣- الدلالة على الحالة الحسنة وطيب العيش .
٤- الدلالة على الجنة .
٥- الدلالة على الآيات والإسلام.
٦- الدلالة على الأمان.

وفي الختام نرجو أنْ نكون قد وفقنا في خدمة لغة القران ،وكشفنا عن جانب من جوانبها فإنْ كنا قد أصبنا فيها و نعمت وإنْ أخطأنا فحسبنا إنّنا حاولنا وبالله التوفيق .

مدخل- النعمة لغة واصطلاحا .

النعمة في اللغة يراد بها : اليد الصّالحة، والمسّرة ،وطيب العيش، والصّلاح . وهي لا تخرج عن هذه المعاني مهما تغيرت أبنيتها وصيغها . فالنعمة عند الخليل :اليد الصالحة والمسرة [١] وعند الجوهري " اليد، والصّنيعة ،والمنّة، وما أنعم به عليك ،وكذلك النُعْمى ، فإنْ فتحت النون مددت، فقلت: النَعماء ، والنعيم مثله، وفلان واسع النعمة، أي: واسع المال" [٢]. وقد أرجع ابن فارس دلالة أصل النون والعين والميم الى" ترفّهٍ، وطيب عيشٍ، وصلاحٍ ، منه النعمة : ما ينعم الله تعالى على عبده به من مال، وعيش . يقال : لله تعالى عليه نعمه، والنعمة: المِنّة، وكذا النَّعماء، والنَّعمة : التنعم، وطيب العيش " [٣].

والنعمة في الاصطلاح تلتقي مع الدلالة اللغوية التقاء تطابق، إذْ هي في أصل وضعها الحالة التي يستلذها الإنسان، وهذا مبني على ما اشتهر عندهم من أنّ (الفِعْلة) بالكسر للحالة ، وبالفتح للمّرة... والنَّعماء: بالفتح والمدّ، وبالضّم، والقصر: قيل هي النعم الباطنة، والآلاء: النعم الظاهرة، وقيل: النعمة هي الشئ المنعم به ، واسم المصدر (أنعم) فهي بمعنى الأنعام الذي هو المصدر القياسي ، والنعم : واحد الأنعام الثمانية من البقر والإبل والمعز والضأن مع انثاها. على ما نطق به النظم الجليل ثم أنّ النعمة التي هي ما تستلذه النفس من الطيبات أما دنيوي أو أخروي" [٤]. وقد انماز الجرجاني في تعريفه للنعمة عن غيره بقوله :"هي ما قصد به الإحسان والنفع لا لغرض ولا لعوض" [٥]. وهذا ما اختص به الله تعالى على نحو عام وذلك بأنْ أغدق

على عباده بالنعم دون غرض أو عوض وهذا ما سنتلمسه من خلال استعراض الآيات التي وردت فيها لفظة (نعمة) مبينين فيها إظهار الدلالات التي جاءت بها هذه اللفظة .

١ـ الامتنان:

لقد مَنّ الله على عباده بنعم كثيرة يعجز عن حصرها أو احصائها وقد عبّر عن هذا المعنى بآيتين تكررتا ، ففي سورة إبراهيم قال تعالى: { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ } إبراهيم: ٣٤ وفي سورة النحل قال تعالى: { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ } النحل: ١٨ وفي كلتا الآيتين جاءت (النعمة) على سبيل الامتنان على العباد ؛ لأنها كثيرة ،ووفيرة الى حدٍ لا يستطيع الإنسان إحصاءها ،أو عدّها قال الزمخشري (لا تحصوها ولا تطيقوا عدّها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادو أنْ يعدوها على الإجمال وأمّا التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله)) (٦)

غير أنّ اللافت اختلاف الختام في كلتا الآيتين. فالأولى خُتمت بـ (ظلومٌ كفّار)، والثانية بـ (الغفور الرّحيم) ختم الآية الأولى؛ لذلك لبيان ما اقتضى ذلك من صفات الإنسان؛ لأنّ الإنسان أي هذا النوع لما له من الأُنس بنفسه، والنسيان لما ينفعه ويضره، والاضطراب بسبب ما يغمه ويسره بليغ الظلم والكفر حيث يهمل الشكر، ويتعداه الى الكفر . وختم سورة النحل (بغفور رحيم) حيث إنّ تلك السورة سورة النعم بدأت بالنهي عن استعجال العذاب، لأنّ الرّحمة أسبق، ومن الرحمة إمهال الناس وامتاعهم بالمنافع، فالتقدير هناك (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إنّ الإنسان لظلوم كفار ولكن ربه لا يعاجله بالعقوبة لأنّه غفور رحيم) (٧). وقد تنبه ابن عاشور الى هذا الاختلاف في ختام الآيتين ،فآية سورة إبراهيم جاءت في سياق وعيد وتهديد عقب قوله:{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} إبراهيم٢٨ فكان المناسب لها تسجيل ظلمهم وكفرهم بنعمة الله .

وأمّا أية النحل فجاءت خطابا للفريقين كما كانت النعم المعدودة عليهم منتفعا بها كلاهما ، ثم كان من اللطائف أنْ قوبل الوصفان " لظلوم كفّار" بوصفين "لغفور رحيم " إشارة الى أنّ تلك النعم كانت سببا لظلم الإنسان وكفرها وهي سبب لغفران الله ورحمته ، والأمر في ذلك منوط بعمل الإنسان (٨) وإذا كانت النعم الإلهية كثيرة بحيث لا يمكن الإحاطة بها أو حصرها فأن ذلك يستدعي أنّ كل نعمة تحصل للإنسان فهي من الله لا من غيره ، وهذا ما عبّر عنه تعالى : { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ } النحل: ٥٣ والمعنى (ما أعطاكم الله من صحة جسم أو سعة في رزق أو متاع بمال أو ولد فكل ذلك من الله) (٩). وزيادة على ذلك أنّ الناس إذا أصابهم المرض والشّدة والبلاء وسوء الحال فإلى الله يتضرعون في كشفه واليه يرفعون أصواتهم بالدعاء والاستغاثة لصرفه (١٠). وبذلك تكون نعم الله سبحانه متنوعة ،ومنقسمة على قسمين :

الأولى: الصحة والمال والولد وغيرها من النعم و الأخرى : كشف الضر الذي يتعلق بكافة أنواع البلاء وهذا أيضا من النعم البالغة، فيكون امتنان الله على عباده في نواحي حياة الإنسان كافة إعطاء النعم، وكشف الضرر. فالآيات المتقدمة تتحدث عن نعم كثيرة وعامة يمتن الله بها على عباده وتستدعي الشكر من المخلوقين، ومن النعم الكثيرة التي وهبها الله تلك التي خصت بني إسرائيل ؛لذا نراها في أكثر من موضع ، قال تعالى : {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} البقرة:٤٠ .وقوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ } البقرة: ٤٧ . وكذلك آية (١٢٢) ،وقوله تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ} المائدة: ٢٠ فالسياقات المتقدمة تتحدث عن التذكير بالنعمة والخطاب موجه لبني إسرائيل، والمعنى العام لقوله "اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ" أي: "لا تنسوا نعمتي ، لتكن منكم على ذكر ، وكذلك كل ما جاء من ذكر النعمة فان معناه _والله أعلم_ على هذا : فاحفظوا ولا تنسوا " (١١).

غير أنّ ما تنماز به الآية الثالثة عن الآيتين الأوليتين أنّ فيها تفصيلا للنعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وأغلب الظن أنّ ذلك يعود الى أنّ الخطاب في الأولى، والثانية من الله تعالى، فاكتفى التعبير القرآني بذكر"نعمتي" إذْ أضيفت الى ياء المتكلم ،وتلك الإضافة عبّرت عن النعم الكثيرة التي شملت بني إسرائيل " وأراد بها ما أنعم به على آبائهم ما عدد عليهم من الإنجاء من فرعون وعذابه من الغرق ، ومن العفو عن اتخاذ العجل والتوبة عليهم وغير ذلك ، وما انعم به عليهم من إدراك زمن محمد (صلّى الله عليه واله وسلّم) المبشر به في التوراة والإنجيل " [١٢].

وهذا ما ينطبق أيضا على الآية الثانية ، أمّا الآية الثالثة ففيها تفصيل للنعم ولعلّ ذلك يعود الى أنّ المتكلم هو موسى (عليه السلام) موجها خطابه لبني إسرائيل ، فأراد منهم أمرا عظيما وهو دخول الأرض المقدسة ،وهذا ما تخبر به الآية التالية {يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ}.

فأبتغى من هذا الخطاب التقرب اليهم وتعظيمهم بـ(يا قوم) ؛ وذلك ؛(لأنّ تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به ولما كان ما في هذه السورة نعما جساما ما عليها من مزيد وهو قوله : (جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا و أتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين). ثم ذكر (نعمة الله) بإضافة النعمة الى لفظ الجلالة لتعظيمها إجمالا تمهيدا لتفصيلها وهي (جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ) و(وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا) و(وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ)، والمقصود (مجموع أشياء إذْ أتاهم الشريعة الصحيحة الواسعة الهدى المعصومة وأيدهم بالنصر في طريقهم ، وساق إليهم رزقهم المنّ والسّلوى أربعين سنة ، وتولى تربية نفوسهم بواسطة رسله) [١٣]. وقد يأتي التركيب على جهة انكار الامتنان على النعمة؛ لأنّ المتكلم لا يراها نعمة فينكرها على المخاطب ، وذلك في قوله تعالى { وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ } الشعراء:٢٢ ففي التركيب إنكار أنْ تكون تلك نعمة ، كأنّه قيل : فأية نعمة لك عليّ في أنْ عبدت بني إسرائيل ، واللفظ لفظ خبر، وفيه تبكيت للمخاطب كأنّه قال : هذه نعمة أنّ اتخذت بني إسرائيل عبدا على جهة التبكيت لفرعون ، واللفظ يوجب أنّ موسى (عليه السلام) قال : هذه نعمة لأنك اتخذت بني إسرائيل عبيدا ولم تتخذني عبدا [١٤]، أي:(إنّ المعنى أنّك تمن علي بما لا يجب أنْ تمن به أي يكون هذا على التبكيت له) [١٥]. وعلى هذا يمكن القول : إنّ الامتنان يكون في النعمة التي لا تقترن بالعذاب للغير، بل إنّ النعمة لا تكون نعمة إلّا إذا تمت بالخير للمخاطب، ومَنْ يهتم بأمره.

٢ـ النصر والنجاة :

ارتأينا أنْ نجمع هاتين الدلالتين لما بينهما من تقارب دلالي فالنصر على الأعداء إنّما هو بمثابة النجاة منهم وخير شاهدة على ذلك قوله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} الأحزاب ٩ فالنعمة _هنا_ كانت خاصة بالمؤمنين وهي نصرهم على الأعداء وهم قريش وغطفان وبنو قريظة وتظافروا على المؤمنين فأرسل الله عليهم (ريحا) نصرة لنبيه ونعمة على المؤمنين _ استقبلتهم ورمت في أعينهم الحصباء، واكفئت قدورهم واطفئت نيرانهم وقلعت بيوتهم ، وارسل الله عليهم جنودا من الملائكة نصرة للمؤمنين [١٦]. وكذلك تدل (نعمة) على النصر في قوله تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ} آل عمران: ١٧٣ ــ ١٧٤ فالنعمة في هذا السّياق (هي نعمة الإيمان والنصر على عدوهم) [١٧].

وكان سبب نصرهم و فلآحهم هو اعتمادهم على الله لذا قال (فانقلبوا) أي فكان ذلك سببا؛ لأنّهم انقلبوا من الوجه الذي ذهبوا فيه مع النبي (صلّى الله عليه واله وسلّم) وعظم النعمة بإضافتها الى الاسم الأعظم فقال (من الله) [١٨]و المراد بالفضل هو ما أصابه المؤمنون من الأرباح بتجارتهم التي تجروا بها والأجر الذي اكتسبوه [١٩].

أمّا دلالة (لنعمة) على النجاة فإنّها جاءت على الأغلب مقترنة بالأنبياء (عليهم السّلام) ونجاتهم من أعدائهم أو من البلاء الذي حلّ بهم فمن الأول قوله{ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ } إبراهيم: ٦ فالآية بدأت بالتذكير بنعمة الله وهي من كلام موسى (عليه السلام) وهذا ترغيب بدأ به مخاطبا قومه لأنه عند النفس أقبل واليه أميل والظرف متعلق بنفس النعمة(٢٠). والمعنى (اذْكرُوا نعْمَته عليكم وقْتَ إنْجائِه إيّاكُم) (٢١) من آل فرعون إذْ كانوا يسومونهم سوء العذاب، والتعبير بالفعل المضارع إشارة الى أنّ هذا العمل كان مستمرا لمدة طويلة ثم جيء ، بالواو (وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ) ودخولهم ينبئ أنّه كان يمسهم من العذاب غير الذبح (٢٢). وعلى هذا تكون (النعمة) نجاتهم من آل فرعون ومن عذابه ، ومن ذلك أيضا قوله تعالى {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ } القمر: ٣٣- ٣٥ فالنعمة جاءت هنا مفعولا له من (نَجَّيْنَاهُم) المعنى: نجيناهم للإنعام عليهم(٢٣) ؛ أي: ليكون نعمة من عندنا ، وإنمّا خُصوا بها ؛ لأنّهم كانوا شاكرين لنا ، وجزاء الشكر لنا ، النجاة (٢٤). وفي استعمال (عندنا) تنويه بشأن هذه النعمة ؛ لأنّ ظرف (عند) يدل على الادخار والاستئثار، فذلك أبلغ أنْ يقال : نعمة منّا أو أنعمنا (٢٥)

٣- الحالة الحسنة وطيب العيش:

النعمة كما هو معروف (الحالة الحسنة) (٢٦)وهذه الحالة لا يتأتاها الإنسان إلاّ بفضل الله وإحسانه لعباده لذا عبّر بها القرآن الكريم في سورة الزمر آية (٨) { وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ }. وقوله تعالى:{ فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } الزمر ٤٩ . فالآيتان تتحدثان عن الإنسان تتحدثان عن الإنسان الجاحد بنعمة ربه المتناقض مع نفسه ، فإذا أصابه الضرّ لجأ الى ربّه وحده وإذا أصابه نعمة أعرْضَ عن شكره وأنكر ربوبيته لذا عبّر القرآن عن إعطائه النعمة بقوله: {خَوَّلَهُ نِعْمَةً } و " التخويل العطية العظيمة على وجه الهبة ،وهي المنحة ما خوله الله مالا" (٢٧). غير أنّ الفارق بين الآيتين إنّ الأول عطفت بالواو، والثانية بالفاء.

وتفريع ما بعد الفاء تفريع وصف بعض من غرائب أحوالهم على بعض ، وهل أغرب من فزعهم الى الله وحده بالدعاء إذْ مسّهم الضرّ وقد كانوا يشمئزون من ذكر اسمه وحده ، فهذا تناقض من افعالهم وتعكيس ، فإنّه تسبب حديث على حديث وليس تسببا على الوجود (٢٨).

والضمير في (أوتيته) للنعمة على أنه شيء أو مال والعناية في ذلك للإشارة الى أنّه لا يعترف لكونها نعمة منا بل يقطعها عنا فيسميها شيئا أو مالا ،ولا يسميها نعمة حتى يضطره الى الاعتراف والإشارة اليه (٢٩). وقد تأتي النعمة في سياق فيه عقوبة على المتحدث عنه فيترك هذه النعمة بسبب أعماله المنكرة وذلك نحو قوله تعالى : { فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ } الدخان: ٢٢ – ٢٧ فالنعمة في هذا السياق تعني ما يتنعم به الإنسان من طيب العيش إذْ إنّ هؤلاء _ وهم فرعون وقومه _ كثير ما تركوا من جنات ومساكن حسنة ناهية والتمتع بالفواكه وهي أنواع الثمار (٣٠) وهذا سببه أنّهم كانوا مجرمين فاستوجبوا الهلاك ونجاة موسى ومن معه (٣١). ومن ذلك أيضا قوله تعالى:{وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا} المزمل: ١٠-١١. فالمراد بـ أولي النعمة (صناديد قريش وكانوا اهل تنعم وترفه) (٣٢) غير أنّ هؤلاء لم يقابلوا النعمة بالشكر للمنعم بل كذبوا به، وكفروا به ، فاستدعى ذلك تهديدهم بقوله تعالى: (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) أي: دعني وفلانا ،أي: لا تحل بيني وبينه حتى انتقم منه ، فجمه بين توصيفهم بالمكذبين وتوصيفهم بأولي النعمة

للإشارة الى علة ما يهددهم به من العذاب ، فأن تكذيبهم بالدعوة الإلهية وهم متنعمون بنعمة ربهم كفران منهم بالنعمة وجزاء الكفران سلب النعمة وتبديلها من النعمة (٣٣) .

وما من شك ان الفلك والأنعام ممّا يدخل في طيب العيش؛ لذا عدّها القرآن من النعمة التي تستحق الشكر ومن ذلك قوله:{ و الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} الزخرف ١٢_١٣ فالمقصود بقوله: (عَلَىٰ ظُهُورِهِ) أي :على ظهور ما تركبونه وهو الفلك والأنعام ، ومعنى ذكر نعمة الله عليهم : أنْ يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ، ثم يحمدوا عليها بألسنتهم(٣٤) وعلى هذا تكون (الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ) من خلق الله العظيم الذي رزقه للإنسان لكي ينعم بهما ويستفيد في حياته بهما وهما من تسخر لها للإنسان .

٤- الجنـــــة :

قد تدلّ لفظة (نعمة) على نعيم الجنة الذي أعد للشهداء الذين قدموا أرواحهم فداء في سبيل الله ودنهم وإيمانهم ويظهر ذلك جليا في قوله تعالى: { وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ } آل عمران١٦٩-١٧٠. فالملاحظ على هذه الآيات تكرار الاستبشار فيها، وثمة سرّ بياني فيه، وهو أنّ الاستبشار المذكور ليس بمجرد عدم الخوف، والحزن بل عليه وبما يقارنه من نعمه عظيمة لا يقادر قدرها وهي ثواب أعمالهم ، وقد نكر الفضل والنعمة ؛ليذهب ذهن السامع فيها كل مذهب ممكن ، والتدبر في الآيات يعطي أنّها في صدد بيان أجر المؤمنين أولا ، وأنّ هذا الأجر رزقهم عند الله سبحانه ثانيا، وأن هذا الرزق نعمة من الله، وفضل ثالثا . وأنّ الذي يشخص هذه النعمة، والفضل هو أنّهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رابعا (٣٥).

٥- الآيـــــات:

لا شك أنّ الإسلام والآيات والهداية الفاظ متقاربة مرتبطة مع بعضها على نحو لا يمكن أنْ تفصل أحدهما عن الآخر إذْ نرى أن لفظة (نعمة) الدالة على هذه المعاني نجمعها في موضوع واحد ، فقد دلت في قوله تعالى: **{ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}** البقرة٢١١، دلت على آيات الله التي هي من أجل نعمه تعالى ؛ لأنّها أسباب الهدى والفوز بالجنة والنجاة من النار، والمراد بتغيير الآيات هو تحريفها وتأويلها الزائغ ، ولا سيما بعد إنزالها عليه ومعرفتها ومجدها وانكارها حفظا لرئاسته ، فمصيره أشد العذاب لكون جريمته أعظم جريمة . وقريب من ذلك قوله تعالى:{ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} المائدة: ٧ فالآية جاءت للفت انتباه المسلمين الى أهمية، وعظمة النعم، ابتدأت الآية بالتذكير بالنعمة تعريفا بالحث على الوفاء ذكرهم بنعم مضت تذكيرا يقصد منه الحث على الشكر، وعلى الوفاء بالعهود. والمراد من النعمة جنسها لا نعمة معينة ، وهي ما في الإسلام من العزّ والتمكين في الأرض ،وذهاب أحوال الجاهلية ،وصلاح أحوال الأمة (٣٦)؛ لذا ذكر الشيرازي أنّ لفظة (نعمة) (وردت اسم جنس لتفيد العموم حيث عني بالنعمة جميع النعم كما يحتمل أيضا أنْ يكون المراد نعمة الإسلام بصورة خاصة والتي أشارت إليها الآية السابقة بصورة إجمالية حيث قالت (وليتم نعمته عليكم) (٣٧). ومثله قوله تعالى: وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ }. الحجرات: ٧ – ٨

فقوله تعالى (فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) تعليل لتحبيب الإيمان وتزيينه وتكريه الكفر والفسوق العصيان ، فالله تعالى يعطي وينعم لا الى بدل يصل اليه منهم (٣٨) (وانتصب "فضلا من الله ونعمة" على المفعول المطلق المبين للنوع من أفعال (حبب،

وزين، وذكر) لأن ذلك التحبيب والتزيين والتكريه من نوع الفضل والنعمة الى آخرها إشارة الى أنّ ما ذكر فيها من أثار علم الله وحكمته) [٣٩] وعلى هذا يكون تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوب المؤمنين نعمة من الله ، وأي نعمة عظيمة ؛ لأنّ الإسلام وآياته الدالة على قدرة الله ، ووحدانيته لا تكفي ما لم تسكن في قلب المؤمن فيحبها وينعم بها سلوكا، وعملاً فضلاً عن حباً وتزيينا. وقريب منه قوله تعالى :{ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ لَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ} الصافات: ٥٥ - ٥٧ فقوله: (وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ) المقصود بنعمة الله هو هدايته والتوفيق للإيمان بالبعث بعد الموت أو إنعامه علي بالإسلام وهدايتي الى الحق وعصمتي عن الضلال [٤٠]. فلولا هذه النعمة العظيمة لكان من المحضرين مع القرين في النار، ولا يستعمل الحضر مطلقا إلّا في الشر [٤١] .

ومن ذلك قوله تعالى :{ رَبِّكَ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ فَحَدِّثْ } الضحى:١١ .تعددت آراء العلماء في المقصود (بِنِعْمَةِ رَبِّكَ) إذْ ذكر الفرّاء أنّ القرآن هي أعظم نعمة الله عليه ، فكان يقرؤه ، ويحدث به [٤٢] ويرى الزّجاج أنّ النبوة هي من أجل النعم [٤٣]، أمّا الزمخشري فقد قال: (وحدث بنعمة الله كلها . ويدخل تحته هدايته عن الضلال وتعليمه الشرائع و القرآن ، مقتديا بالله في أنّ هداه من الضلال) [٤٤]. وهذا هو الراجح ، فنعم الله على رسوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم) كثيرة ، وهي تستحق أنْ يتحدث عنها كونه أسوة حسنة لأمته. ومثله قوله تعالى: {مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ } القلم ٢ فالخطاب للنبي (صلّى الله عليه واله وسلّم) ، والباء في قوله (بنعمة) للسببية أو المصاحبة ، أي ما انت بمجنون بسبب النعمة لو مع النعمة ، والسياق يؤيد أنّ المراد بهذه النعمة النبوة ، فأنّ دليل النبوة يدفع عن النبي كل اختلال عقلي حتى تستقيم الهداية الإلهية الملازمة في نظام الحياة الإنسانية [٤٥]. إذْ انتفى عن الرسول (صلّى الله عليه واله وسلّم) الجنون بنعمة ربه ، وإنّما قال (مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ) ؛لأنّ الجنة لا تكون نعمة من حيث هي جنة . وإنّما تكون نعمة من حيث تؤدي الى مصلحة في الدين والعافية تكون نعمة من حيث هي عافية ، فلهذا حسن ما أنت بنعمة ربك بمجنون [٤٦].

٦ـ الأمـــــان :

قد تدلّ لفظة (نعمة) على الأمان ، وهي نعمة عظيمة لمن يقدرها ويشكر عليها . وهي نعمة خاصة بطائفة من العرب، وهم أهل مكة غير أنّهم لم يقدروا هذه النعمة فجاء السياق مؤيدا لهم نكرانها، وعدم الإيمان بالمنعم عليهم بها ، وذلك في قوله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ} العنكبوت ٦٧ وكانت العرب حول مكة يغزو بعضهم البعض ، وأهل مكة آمنون فيها مع قلتهم وكثرة العرب ، فذكرهم الله هذه النعمة الخاصة عليهم بأنهم يأمنون بالباطل الذي هم عليه ، ومثل هذه النعمة المكشوفة الظاهرة وغيرها من النعم التي لا يقدر عليها إلّا الله وحده عندهم. ويمكن أنْ يكون من قبيل على جميل صنع الله بهم. وسبوغ نعمه عليهم بأنْ جعلهم في أمن مع أنّ الناس يأخذون من حولهم، وذلك لا يقدر عليه إلّا الله، ومع ذلك يصدقون بعباده الأصنام وهي باطلة وبنعمة الله التي أنعم بها عليهم يكفرون[٤٧] .

الخاتمــــــة

تمخضت هذه الدراسة عن جملة نتائج أهمها

١- إنّ اكثر الدلالات التي وردت فيها لفظة نعمة في القرآن الكريم هي الدلالة على الامتنان فقد تنوعت فيها الأساليب فضلاً عن تنوع المخاطبين ، فثمة آيات موجهة الى الناس كافة ، وأخرى موجهة الى بني اسرائيل خاصة لا سيما في أسلوب الأمر (يا بني اسرائيل أذكروا نعمتي) وأخرى جاءت على سبيل إنكار الامتنان على النعمة ؛ لأن المتكلم لا يراها نعمة .

٢- جاءت دلالة (نعمة) على النصر موجهة للمؤمنين خاصة ؛لأن الله سبحانه يؤيد بنصره المؤمنين خاصة ، وكذلك نعمة النجاة جاءت على الأغلب خاصة بالأنبياء ؛ لأن الله سبحانه ينجيهم من اعدائهم.

٣ - قد يوجه الخطاب الى الجاحد بنعمة ربه وهذا ما نجده في لفظه (نعمة) الدالة على الحالة الحسنة وطيب العيش حينما تـأتي في سياقات تذكر نعم الله على الإنسان الجاحد الذي ينكرها ولا يقابل تلك النعم بالشكر.

٤- دلالة (نعمة) على الجنة اختصت بالشهداء الذين وهبوا أرواحهم في سبيل الله .

٥- اختصت دلالة الأمان في (نعمة) بأهل مكة ،إذْ إنّهم انعموا بهذه النعمة واختصوا بها لكنهم قابلوها بالجحود وعبادة الأصنام

هوامش البحث

(١) ينظر: العين ٢/١٦١- ١٦٢

(٢) ينظر: الصحاح ٥/٢٠٤١

(٣) ينظر: مقاييس اللغة ٥/٤٤٦

(٤) الكليات ٩١٢

(٥) التعريفات ١٩٥

(٦) الكشاف ٢/٥٢٣

(٧) نظم الدرر ١٠/٤٢٣

(٨) التحرير والتنوير ٤/ ١٢٤

(٩) معاني القران واعرابه للزجاج ٣/١٦٦ ،وينظر : مجمع البيان ٦/١٢٦

(١٠) ينظر: مجمع البيان ٦٨٢٦

(١١) معاني القران الفراء ١/٢٨

(١٢) الكشاف ١/١٥٩

(١٣) التحرير و التنوير ٦/١٦٢

(١٤) ينظر : معاني القران واعرابه للزجاج ٤/٦٧

(١٥) اعراب القران للنحاس ٣/١٧٧

(١٦) ينظر : التبيان في تفسير القران ٨/٣٢٩- ٣٣٠

(١٧) معاني القران واعرابه للزجاج ١/٤١١

(١٨) ينظر : نظم الدرر ٥/١٣٠

(١٩) ينظر : جامع البيان ٦/٢٥٣، وفتح الغدير ٤/٦٥٢

(٢٠) ينظر: ارشاد العقل السليم ٥/٣٤

(٢١) انوار التنزيل ٢/٢١٥

(٢٢) ينظر: معاني القران للفراء ٢/٦٩

(٢٣) ينظر : معاني القران واعرابه للزجاج ٥/٧٢،واعراب القران للنحاس ٤/٢٩٧

(٢٤) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ١٩/٨٤

(٢٥) ينظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٠٤-٢٠٤

(٢٦) المفردات في غريب القران ٥٠١

(٢٧) مجمع البيان في تفسير القرآن ٩/ ١٢

(٢٨) ينظر : التحرير والتنوير ٢٣/٣٤٢ و ٢٤/٣٤ - ٣٥

(٢٩) ينظر الميزان في تفسير القرآن ١٧/٢٧٤

(٣٠) ينظر : الميزان في تفسير القرآن ١٨/١٤٢

(٣١) ينظر : الكشاف ٤/٢٧٩

(٣٢) الكشاف ٤/٦٤١

(٣٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ٢٠/٧٣

(٣٤) ينظر: الكشاف ٤/٢٤٣

(٣٥) ينظر: ارشاد العقل السليم ١١٣/٢

(٣٦) ينظر: التحرير والتنوير ١٣٢/٦ - ١٣٣

(٣٧) الأمثل ٤٤٤/٣

(٣٨) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ٣١٨/١٨

(٣٩) التحرير والتنوير ٢٣٨/٢٦

(٤٠) ينظر: جامع البيان ٥٥/١٩ ، وفتح القدير ٥٢٣/٤ ، و مجمع البيان ٢٣٤/٨

(٤١) ينظر: معاني القران للفراء ٣٨٥/٢ و مجمع البيان ٢٣٤/٨

(٤٢) ينظر: المصدر نفسه ٢٧٥/٣

(٤٣) ينظر: معاني القران واعرابه ٢٥٩/٥

(٤٤) الكشاف ٧٧٤/٤

(٤٥) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ٢٨٤/١٩

(٤٦) ينظر: التبيان في تفسير القران ٤٧/١٠ - ٧٥

(٤٧) ينظر: المصر نفسه ٢٢٦/٨

المصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم : أبو السعود بن محمد العمادي (٩٨٢هـ) ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، (د.ت).
- أسرار التكرار في القرآن ، محمود بن حمزة الكرماني ، تح : عبد القادر أحمد عطا ، دار النصر للطباعة الإسلامية ، (د . ت).
- إعراب القرآن ، أبو جعفر النحّاس (٣٣٨هـ) ، تحقيق: د. زهير غازي زاهد ، عالم الكتب ، دار النهضة العربية ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، ناصر الدين الشيرازي ،مطبعة سليمان زاده، قم، ١٤٢ هـ
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين البيضاوي (ت ٧٩١هـ)، تح: محمد صبحي بن حسن حلاق ، د. محمد أحمد الأطرش ، دار الرشيد ومؤسسة الإيمان ،ط١ ،بيروت ، ٢٠٠٠م .
- التبيان في تفسير القرآن ، أبو جعفر الطوسي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،(د . ت)
- التحرير والتنوير : محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤م.
- التعريفات : علي بن محمد الجرجاني ، دار إحياء التراث العربي ، ط١ ، بيروت ، ٢٠٠٣ م .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر ابن جرير الطبري (٢٢٤هـ)، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، (د .ت).
- الجديد في تفسير القرآن المجيد ، الشيخ مجمد السبزواري، دار التعارف للمطبوعات ، ط ١، بيروت ، ١٩٨٢م .
- الصحاح تاج اللغة و صحاح العربية : إسماعيل بن حماد الجوهري ٣٩٣ هـ ، دار العلم للملايين ، ط ٣، بيروت، ١٩٨٤.
- العين : الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) ، تح : د. مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، سلسلة المعاجم والفهارس، (د. ت).
- فتح القدير : الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، حققه وخرّج أحاديثه ، د. عبد الرحمن نميرة .
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم محمد الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت.
- الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية : ابو البقاء الكفوي (ت ١٠٩٤) ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ،ط٢ ، ١٩٩٨م .
- مجمع البيان في تفسير القرآن: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط١ ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري (ت٣١١هـ) ، شرح وتحقيق : د. عبد الجليل عبده شلبي ، دار الحديث ، القاهرة - معاني القرآن
- المفردات في غريب القرآن : الراغب الأصفهاني (ت ٦٠٤هـ) ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨١م.
- مقاييس اللغة : احمد بن فارس (ن ٣٩٥ هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الميزان في تفسير القرآن ، السيد محمد حسين الطباطبائي ، منشورات الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط١ ، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.
- نظم الدرر الدرر في تناسب الآيات والسور : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم نظم بن عمر البقاعي (ت٨٨٥هـ) ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة.